غير ان المصريين اندحروا في ٦٠٥ ق. م. امام البابليين في معركة قرقميش Carchamish (موقع سوري قرب جرابلس) ورجع القائد البابلي في آب من العام ذاته الى بابل، كي يصبح امبراطوراً بعد موت أبيه، وكي يعود في حملة الى سوريا في حزيران ٦٠٤ ق. م. ويخضع الدول المحلية فيها، بما في ذلك اليهودية. الملك البابلي هذا هو نبوخذ نصَّر الثاني، الذي استمر في حملته طيلة السنوات الثلاث التالية، واشتبك في ٦٠١ ـ ٦٠٠ ق. م. مع الجيش المصري متكبداً خسائر فادحة، مما أدى الى انقلاب بعض الدول التابعة عليه، ومنها اليهودية، وهذا، أيضاً، اوقف حملات نبوخذ نصَّر السنوية قليلاً، ريثما يعيد تجهيز قواته. انتهى نبوخذ نصَّر من ذلك في ٥٩٩ ـ ٥٩٨ ق. م.، وعاد الى حملاته، فبدأ هجومه على القبائل العربية في شمال غرب الجزيرة العربية تمهيداً لاحتلال اليهودية. ثم هاجم اليهودية بعد عام واستولى على القدس في ١٦ آذار ٥٩٧ ق. م. فعزل الملك يهوياقيم وعين صدقيا بدلاً منه. لكن عدم اخلاص صدقيا في ولائه للبابليين تسبب في اعادة غزو نبوخذ نصَّر لليهودية، فاستسلمت له القدس في آب ٥٨٦ ق. م.، وحرقها هذه المرة انتقاماً، وقيل إنه هدم هيكل سليمان، وقتل ابناء صدقيا أمام عينيه، وسمل عيني الأخير، وأسر أغلب السكان وساقهم الى بابل.

يلمح المرء الصراع بين التيارين، المصري والبابلي، في اليهودية، فلم ينته التيار البابلي بقتل الملك يوشيا من قبل، وربما كان النبي أرميا، فيما بعد، هو أحد الناطقين الكبار باسمه. يقول باسم الرب: «... والآن قد وقعت كل هذه الاراضي ليد نبوخذ نصَّر، ملك بابل، عبدي... فتخدمه كل الشعوب... ويكون أن الامة، أو المملكة، التي لا تخدم نبوخذ نصَّر، ملك بابل، والتي لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل، إني اعاقب تلك الامة بالسيف، والجوع، والوباء ـ يقول الرب ـ حتى افنيها بيده».

ان المأساة التي تعرض لها يهود ذلك الزمان تندرج في اطار المآسي التي تعرضت لها جميع الشعوب في المراحل العبودية من التاريخ الانساني. فالمأساة ذاتها تعرض لها الآشوريون انفسهم، والبابليون انفسهم.

اذا صدقنا المصادر التي اعتمد عليها ويل ديورانت في «قصة الحضارة» (الجزء الثاني، المجلد الأول، ترجمة محمد بدران باشراف جامعة الدول العربية)، نجد أن سنحاريب نهب تسعاً وثمانين مدينة وثمانمائة وعشرين قرية، وغنم ٢٠٨ آلاف من الأسرى، وحاصر بابل، واحرقها، وقتل اهلها عن آخرهم تقريباً، الخ (ص ٢٦٨).

ونجد أن نبوخذ نصَّر اجتاح، بعد موت آشور بانيبال العام ٦٢٦ ق. م. بأربعة عشر عاماً (أي ٦١٢ ق. م.)، بلاد الآشوريين، واستولى على القلاع الشمالية بسهولة، وخرب نينوى (عاصمة الآشوريين)، تخريباً لا يقل في قسوته وشموله عما فعله ملوكها من قبل بالسوس وبابل، فاحرقت المدينة، وذبح أهلها، أو سيقوا أسرى (ص ٢٩٩).

ونجد، أيضاً، ان اليهود قتلوا من الكنعانيين اكثر ممن استطاعوا قتلهم منهم، وسبوا من بقي من نسائهم، وجرت دماء القتلى انهاراً «زكاة للرب»، وانهم قتلوا من مدينتين، فقط، ١٢٠٠٠ رجل (ص ٢٣٦).

ثم مرت الايام والسنين والقرون، وتغير وجه العالم، وظهرت مستجدات لا حصر لها. ومع ذلك رجعت الصهيونية، في القرن التاسع عشر، الى أيام السبي البابلي، واعتبرت أنه بداية الدياسبورا، أي بداية «التشتت» اليهودي الذي استمر زعماً عبر القرون، والذي يجب